﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةم بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢١١﴾ [البقرة: 211]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

علاقة الآية بما قبلها على وجهين: حسب النظر إلى الضمير في قوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾، إن كان الضمير لأهل الكتاب؛ فهي كالدليل عليه، فكثرة الآيات التي جاءت فيهم - وهم بها مقرُّون - دليل على قدرته على الآيات التي لم تحدث بعد، وإن كان الضمير يعود إلى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ﴾؛ كانت الآية بيانًا لحال المعاندين من أهل الكتاب بعد بيان حال المعاندين من أهل الشرك، فقد جاءت هذه الآية بمنزلة البرهان لما قبلها؛ فقد عرّضت بفريقٍ تمادى في الكفر والغرور، ولم ينتفع بالآياتِ البيِّنات؛ فَناسَبَ ذَلِكَ أَنْ يُعَقِّبَ بتذكيرهم بما بَلَغَهُمْ مِنْ قِلَّةِ انْتِفاعِ بَني إِسْرائيلَ بِما أوتوهُ مِنْ آياتِ الاهْتِداءِ، مَعَ قِلَّةِ غَناءِ الآياتِ لَدَيْهِمْ عَلى كَثْرَتِها، فَإِنَّهُمْ عانَدوا رَسولَهُمْ، ثُمَّ آمَنوا بِهِ إيمانًا ضَعيفًا، ثُمَّ بَدَّلوا الدّينَ بَعْدَ ذَلِكَ تَبْديلًا؛ فزلّوا، وتولّوا، فعوقبوا[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَلۡ﴾: أصلها: اسأل، يقال: سأل يسأل سؤالًا ومسألةً، ورجلٌ سُؤَلَةٌ: كثير السّؤال، والسُّؤال: استدعاء معرفةٍ أو ما يؤدّي إليها، وهو المعنى السياقي هنا، وجوابُها اللّسانُ، وتنوب عنه اليد، أو استدعاء مال، وما يؤدّي إليه، وجوابُه اليدُ، وينوبُ عنه اللّسان، والسُّؤْل: ما سألتَه من عطيّة أو أُمنيّة، وهو بمعنى الطّلب: إما طلب شيء، أي: تحصيله، أو طلب علم، أي: معلومة[2].

2) ﴿ءَايَةٖ﴾: مشتقّة من التَّأيِّي الذي هو: التَّثبُّت، والإقامة على الشّيء، والآية: العلامة، وهذه آيةُ مَأْياةٌ، كقولك: عَلامة مَعْلَمَة، وأصلها: أَأْيَة بوزن أَعْية، وقال الأصمعيّ: آيةُ الرّجُل: شخْصُه، وتعني: بقاء الشّيء في مكانه شاخصًا علامة لشيء، قال الخليل: خَرَجَ

(1) تفسير ابن عرفة: 1/254، والرّازيّ، التّفسير الكبير: 6/367، وابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 2/288، والآلوسي، روح المعاني: 2/99.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سأل)، والرّاغب، المفردات: (سأل)، السّمين، عمدة الحفّاظ: (سأل)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سأل).

القوم بآيتهم، أي: بجماعتهم، يعني: أنّهم حملوا ما شأنه، أو المعتاد أن يكون قائمًا، ومنه آية القرآن؛ لأنّها جماعةُ حروف، وتعني: كلماته، و(الآية): هي العلامة الظّاهرة، وهو المعنى السياقي هنا، وحقيقته لكلّ شيءٍ ظاهرٍ، والآية: الدّليل والبرهان[1].

3) ﴿يُبَدِّلْ﴾: أصل البدَل: حلول شيء محلَّ شيء، وهو قيام الشّيءِ مقامَ الشّيء الذّاهب، يقال: هذا بَدَلُ الشّيءِ وبَديلُه، ويقولون: بدّلْتُ الشّيء إذا غيّرتَه، وإنْ لم تأتِ له ببَدَلٍ، وأبْدَلْتُهُ؛ إذا أتيتَ له ببدلٍ، وهو أعمُّ من العِوَض؛ فإنَّ العوض هو أن يصير لك الثّاني بإعطاء الأوّل، والتّبديل: تغيير الشّيء وإن كان بغير عِوَضٍ[2]، وتبديل النعمة هنا معناه: وضع الكفر موضع الشكر، والتكذيبِ موضعَ التصديق.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يأمُرُ اللّه تعالى نبيَّه محمّدًا ﷺ أنْ يسأَل بني إسرائيل المعاندين له عمّا أعطاهم سبحانه وتعالى مِن الحُجَج الواضحة، والبراهينِ والدَّلائلِ والمعجزات التي تدلُّ على صِدْقِ ما جاءهم به الأنبياءُ والرُّسلُ عليهم السلام لكنَّهم بَدَّلوا، وَغَيَّروا، وكفَروا، وكذَّبوا، وأعرَضوا عن تلك الآيات، وقد توعَّد اللّه مَن يُعرِض عن آياته، ويختارُ الكفرَ على نعمةِ الإسلام بعد أنْ بلَغَتْه بالعقابِ الشَّديد.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

مجيء التّقرير في صورة الأمر بالسؤال أوقعُ في النّفس وأدلُّ على الإلزام:

في هذا السُّؤالِ تَثْبيتٌ للنّبيّ ﷺ، وزِيادَةُ يَقينِ المُؤْمنين، وتقريع لليهود وتوبيخهم على طغيانهم وجحودهم بالحق بعد وضوح الآيات

﴿سَلْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: سَلْ: فعل أمْر، مِنْ سَأَلَ يَسْأَلُ، أَصْلُهُ: اسْأَلْ، فَحُذِفَت الهَمْزَةُ تَخْفيفًا بَعْدَ نَقْلِ حَرَكَتِها إلى السّاكِنِ قَبْلَها، ولمّا تَحَرَّكَ أَوَّلُ المُضارِعِ؛ اسْتُغْنِيَ عَنْ هَمْزَةِ الوَصْلِ.

وقد يكون مأخذُها من لغة: سال يسال، مثل: خافَ يَخافُ، فحينئذٍ يكون الأمر منها: (سَلْ)، مثل: (خَفْ)، وبهذا قرأ نافعٌ وابنُ عامر وأبو جعفر: ﴿سَالَ سَآئِلُۢ﴾ [المعارج: 1] على وزن (قال)[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أيى)، والرّاغب، المفردات: (أي)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (أي)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أيي- إي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدل)، والرّاغب، المفردات: (بدل)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (بدل)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بدل).
(3) ابن الجَزَريّ، النّشر: 2/390.

والعَرَبُ يُكْثِرونَ مِنْ هَذا التَّخْفيفِ في (سَأَلَ) ماضِيًا وَأَمْرًا، إلّا أَنَّ فعْل الأَمْر إذا وَقَعَ بَعْدَ الواوِ والفاءِ؛ تَرَكوا هَذا التَّخْفيفَ غالِبًا، كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: 82]، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: 59][1].

والمَأْمورُ بهذا السُّؤالِ هُوَ رسولُ اللّه ﷺ؛ لِأَنَّهُ الذي يَتَرَقَّبُ أَنْ يُجيبَهُ بَنو إسْرائيلَ عَنْ سُؤالِهِ، إذْ لا يعبؤون بِسُؤالِ غَيْرِهِ، وهو الراجح هنا كما هو الأصل في الخطاب[2]، أو المأمور به كلّ أحد، والمُرادُ بـ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الحاضِرونَ مِنَ اليَهودِ في زمانه ﷺ، أي: سل الحاضرين منهم، أو استقرئ أخبار السّابقين، وسل تاريخَهم[3]، أو سَلْ أهل الإيمان منهم - وهم عبد اللّه بن سلام وأصحابه - عن الآيات؛ ليزدادوا يقينًا وطمأنينةَ قلبٍ؛ لأنّ الأدلّةَ إذا تظاهرت؛ كان ذلك أقوى وأثبت[4]، والسّؤال هنا ليس جاريًا على حقيقَته، إنّما هو أسلوبٌ من أساليب البيان؛ يُراد به التّذكير بكثرة الآيات التي آتاها اللّه بني إسْرائيل، إمّا بسؤالٍ منهم وتعنّت، وإمّا ابتداء من عند اللّه لحكمةٍ من الحكَم، وذلك استنطاقًا لحالهم، لا أن يسأل واحدًا، فيخبره[5]، والراجح أنَّ الأمر بالسُّؤالِ هنا مجاز يراد منه التقريع والتوبيخ لليهود في زمانه ﷺ، كما إذا أراد واحدٌ منا توبيخَ أحد؛ فإنَّهُ يقول لمن حضر: سلْه كم أنعمتُ عليه[6].

﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: تخصيصُ إيتاءِ المعجزاتِ بأهلِ الكتابِ مع عمومِه للجميعِ؛ لأنّهم أعلمُ من غيرِهم بالمعجزاتِ، وكيفيّةِ دلالتِها على الصّدقِ، لِعلمِهم بمُعجزاتِ الأنبياءِ السّابقة[7].

الموقع البديع لـ﴿كَمْ﴾ واحتمالها الخبرية والاستفهامَ:

﴿كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾

﴿كَمْ﴾: إمَّا أن تكون خبرية، ويكون المسؤول عنه محذوفًا، وعليه تكون الجملة ابتدائيَّة، لا محلَّ لها من الإعراب، وتكون مبيِّنة لاستحقاقهم التَّقريعَ والتَّوبيخَ، وإمَّا أن

(1) ابن عادل، اللّباب: 3/488، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/288.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 1/494.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/254، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/288- 289، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/657.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/697.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/390.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 1/494.
(7) الآلوسّي، روح المعاني: 1/494.

كـثرةُ الآيـات لا تَنفع المُعَانِدَ

تكون استفهاميّة، يُراد بها: التَّقرير، أي: طلب الإقرار، والمعنى: أيّ عدد، فهي في محلِّ نصبٍ مفعولٌ ثانٍ ل ﴿ءَاتَيۡنَٰهُم﴾ مقدّم عليه وجوبًا؛ لأنّ الاستفهام له صدر الكلام، والمعنى: سلْهم هذا السُّؤال، وتقديره: آتيناهم أيّ عددٍ، أو آتيناهم عددًا كثيرًا، وهي معلِّقة ل ﴿سَلۡ﴾ عنِ العمل فيما بعده، وإنَّما عُلِّق ﴿سَلۡ﴾ عنِ العمل فيما بعده مع أنّه ليس من أفعال القلوب لأنّه سبب للعلم، والعلم يعلِّق، فكذلك سببُه، فأجري المسبَّب مُجرى السّبب، والتّعليقُ هو: إبطال العمل لفظًا، لا محلًّا، وأجاز صاحب الكشّاف أن تكون خبريّة أيضًا، بمعنى: عدد كثير، أي: آتيناهم عددًا كثيرًا من الآيات، ومنع أبو حيّان أن تكون خبرية من حيث إنَّ ﴿كَمۡ﴾ الخبرية مستقلّة بنفسها، غير متعلّقةٍ بالسّؤال، فتكون مفلتةً ممّا قبلها، والمعنى يؤدّي إلى انصباب السّؤال عليها - وأيضًا - فَيَحْتاج إلى حَذْفِ المفعول الثّاني للسّؤالِ، وتقديرُه: سَلْ بَني إسرائيل عن الآيات التي آتيناهم، والاستفهاميّةُ لا تحتاجُ إلى ذلك[1].

خطاب الحاضرين بخطاب السّابقين لاتّحاد الصّفات والأعمال:

العـبرة بتأييد الفكرة، واتفاقِ المعـتـقـد، لا باتّحاد الزّمن

﴿ءَاتَيۡنَٰهُم﴾: آتَيْنا أَسْلافَهُمْ آياتٍ بَيِّناتٍ، فَأَنْكَروها، فاسْتَوْجَبوا العِقابَ مِنَ اللّهِ تَعالى، وَفِي ذَلِكَ تَنْبيهٌ لِلحاضِرينَ عَلى أَنَّهُمْ لَوْ انحرفوا عَنْ آياتِ اللّهِ فأنكروهَا؛ لَوَقَعوا في العَذابِ كَما وَقَعَ أولَئِكَ المُتَقَدِّمونَ فيهِ، والمَقْصودُ مِنْ ذِكْرِ هَذِهِ الحِكايَةِ أَنْ يعتبروا بغيرهم، كما قال تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾ [الحشر: 2]، وَقالَ: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ [يوسف: 111][2].

وجاز خطاب الحاضرين بخطاب السّالفين؛ لِأَنَّ الخِصالَ الثّابِتَةَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/254، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/349- 350، والسّمين، الدّرّ المصون: 2/368، 370، وابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 657.

(2) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 6/365.

لِأَسْلافِ القَبائِلِ والأُمَمِ، يَصِحُّ إثْباتُها لِلْخَلَفِ لِتَرَتُّبِ الآثارِ لِلْجَميعِ، وَيَجوزُ أَنْ يَكونَ المَعْنى: أَنَّهُمْ لَمّا تَناقَلوا آياتِ رُسُلِهِمْ في كُتُبِهِمْ، وَأَيْقَنوا بِها؛ فَكَأَنَّهُمْ أُوتُوها مُباشَرَةً[1].

بلاغةُ وصف الآيةِ بكونِها بيِّنَةً في قوله: ﴿ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ﴾:

قـوّة الـدّليـل لا تحمل الجاحد عـلى الإيـمـان، بل تزيده عنادًا وإصـــرارًا على الباطل

﴿مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ﴾: الآيَة البَيِّنَة هي المعجزة الواضحة المثبَتة إثباتًا، لا مجال للشّكّ فيه، ولا إثارة الرَّيب حوله، ممّا تَضَمَّنَتْهُ التَّوْراةُ والإنْجيلُ مِنْ صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَتَحْقيقِ نُبُوَّتِهِ، وَتَصْديقِ ما جاءَ بِهِ، أَوْ مُعْجِزاتُ موسى عليه السلام؛ فَيَدُ موسى تنقلب بيضاء من غير سوء، وعصاهُ تنقلبُ حيّةً تسعى، ويضربُ بها البحرَ، فتفلقُه اثني عشر طريقًا، وتضرب الحجرَ، فتنبجسُ منه اثنتا عشْرة عَينًا، ويُظلّهم الغمام في الحَرّ، وينزل عليهم المنّ والسّلوى؛ وإنزال التّوراة عليهم، وتبيين الهدى من الكفر لهم، ومع كلّ هذه الآيات البيّنات قالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: 153]، ومنهم من كفر، وعبَدَ العِجْلَ.

فوصف الآية بكونها بيِّنَةً: إيماءٌ إلى قوَّةِ الدَّليلِ، إلَّا أَنَّ قوّتَهُ لا تحمِل الجاحدَ على الإيمان، ومَن كفر لا يكفُرُ عن نقصٍ في الدّليل، ولكن عن فسادٍ في الرَّأي، بسبب غشاوة على القلب وضلال في النّفس، وقوّةُ الدّليل مع هذه الحال لا تزيده إلّا عنادًا وإصرارًا على الباطلِ[2].

بلَاغَةُ إيجَازِ الْحَذْفِ:

الْكُفْرُ بِالْآيَاتِ مِنْ عَادَةِ الْيَهُودِ

وفي الآيَةِ إيجَازٌ بالْحَذْفِ؛ وَوَجْهُهُ: أنَّ من أوتي هذه البيِّنات، فكَفَر بها؛ لم تكن تلك النَّتيجة الفاسدة جديرةً بالذِّكر في الكلام، فحذفُها إيماءٌ إلى عدم الاعتدادِ بها، أو لأنَّها نتيجة معروفة سلفًا مِنَ اليهود؛ إذْ كان كفران الآيات من شأنهم وعادتهم، وتَقْديرُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/289.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/254، والرّازيّ، التّفسير الكبير: 6/366، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/657.

المحذوفِ: كَمْ آتَيْناهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ، فَكَفَروا بِها[1]، أو فبدّلوها، كما يدلّ عليه قَوْلُه: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾[2].

نُكْتَةُ الإِظْهَارِ فِي مَقَامِ الإِضْمَارِ:

المُبَالَغَةُ فِي فَضْحِ اليَهُودِ؛ لِشَنَاعَةِ صَنِيعِهِمْ

إذا حُمِلَ الضَّمير في قول الله تعالى قبلُ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ على أنَّ المرادَ به أهلُ الكتاب؛ فيكون في قولِه سبحانه ههنا: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ عدولٌ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ؛ إذْ إنَّ مقتضى الظَّاهر: سَلْهُمْ.

ونُكْتَةُ هذا العدولِ: زيادَةُ النِّداءِ على فضيحةِ حالِهم، وشناعَةِ صنيعِهم؛ إذ قد رأوا آياتٍ كثيرةً، فكان الأنسبُ لحالهم أن يبادِرُوا بالإيمان بالنَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ؛ لأنَّهم أعلمُ النَّاس بأحوالِ المُرْسَلِينَ[3].

سرُّ تنكيرِ ﴿ءَايَةٍ﴾ ونكتَةُ وصفِهَا:

مقابلَةُ اليهودِ لعظمَةِ الآياتِ وكثرتِها بالجحودِ والكفرانِ

تنكيرُ ﴿ءَايَةٍ﴾ من قول الله تعالى: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ لِلتّعظيم والتّفخيم والتَّكثير، ووصفُها بـ﴿بَيِّنَةٍ﴾ زيادةٌ في التّنويه بجلال شأنها[4]، وفي كل ذلك زيادة فضح لليهود، وكشف عن إصرارهم وعنادهم.

التّبديل يقتضي مُبْدَلًا وبَدَلًا، فالمُبْدَلُ (الذّاهب)، والبَدَلُ (الموجود الحاصل)

﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾: لَفْظُ (مَنْ) من ألفاظ العموم، وَهُوَ شَرْطٌ، فَيَنْدَرِجُ فيهِ مَعَ بَني إِسْرائيلَ كُلُّ مُبَدِّلٍ نِعْمَةَ اللَّه تَعالى، كَكُفّارِ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ، فَإِنَّ بَعْثَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ نِعْمَةٌ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ بَدَّلوا بِالشُّكْرِ عَلَيْها وَقَبولِها الكُفْرَ[5].

والتّبديل: تغيير الشَّيء بآخر، وتصييرهُ على غير ما كان عَلَيْهِ، وذلك بتَرْك القِيام بِما وَجَبَ عَلَيْهِمْ مِنَ العَمَلِ بِتِلْكَ الآياتِ البَيِّناتِ، وجعْلها نقمةً بالكفران، وترك الشّكر لها[6].

(1) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 6/366.
(2) تفسير الرّاغب: 1/436.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/288.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/122.
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 3/28، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/351.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/351، والواحديّ، الوسيط: 1/314.

ويبدّل: يَحْتاجُ لِمَفْعولَيْنِ: مُبْدَلٌ وَبَدَلٌ، فالمُبْدَلُ (الذّاهب) هو الذي يَتَعَدّى إِلَيْهِ الفِعْلُ بِحَرْفِ جَرٍّ، والبَدَلُ (الحاصل): هو الذي يَتَعَدّى إِلَيْهِ الفِعْلُ بِنَفْسِهِ، أي: ومن يبدّل بنعمة اللّه الكفرَ؛ فنعمة اللّه هي الذّاهبة وهي المبدَل، والكفر هو الموجود الحاصلُ، وهو البدَل، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: 28]، فـ﴿كُفْرًا﴾: هو البدَل، و﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾: هُوَ المُبْدَلُ، وَيَجوزُ حَذْفُ حَرْفِ الجَرِّ إذا عُلِمَ المرادُ، وَيجوز أيضًا حَذْفُ المَفْعولِ الواحِدِ وَحَرْفِ الجَرِّ؛ إذا فُهِم المَعْنى، ولم يحصل لَبس، كما هو الحال هنا؛ إذ حُذِفَ المفعولُ، وهو البدَل، وحُذف حرفُ الجَرّ[1]، وَحُذِفَ ما بُدِّلَت بِهِ النِّعْمَةُ؛ لِيَشْمَلَ جَميعَ أَحْوالِ التَّبْديلِ؛ فإنَّ حذف المتعلّق مُؤْذِنٌ بالعموم.

وفي ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ هاهنا قولان:

أحدهما: أَنَّ المُرادَ آياتُهُ وَدَلائِلُهُ، وَهِيَ مِنْ أَجَلِّ أَقْسامِ نِعَمِ اللّهِ؛ لِأَنَّها أَسْبابُ الهُدى والنَّجاةِ مِنَ الضَّلالَةِ، ثُمَّ عَلى هَذا القَوْلِ في تَبْديلِهِمْ إِيّاها وَجْهانِ؛ فَمَنْ قالَ: إِنَّ المُرادَ بِالآيَةِ البَيِّنَةِ مُعْجِزاتُ موسى عليه السلام؛ قالَ: إِنَّ المُرادَ بِتَبْديلِها أَنَّ اللّه تَعالى أَظْهَرَها؛ لِتَكونَ أَسْبابَ هُداهُم، فجعلوها أسبابَ ضلالاتهم، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التّوبة: 125]، وَمَنْ قالَ: إِنَّ المُرادَ بِالآيَةِ البَيِّنَةِ ما في التَّوْراةِ والإِنْجيلِ مِنْ دَلائِلِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ قالَ: إِنَّ المُرادَ مِنْ تَبْديلِها تَحْريفُها، وإِدْخالُ الشُّبْهَةِ فيها.

كـفـران النِّـعـم يُوجِبُ العقوبة

والقَوْلُ الآخَرُ: أَنَّ المُرادَ بِـ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ ما آتاهُمُ اللّهُ مِنْ أَسْبابِ الصِّحَّةِ والأَمْنِ والكِفايَةِ، واللّه تَعالى هُوَ الذي أَبْدَلَ النِّعْمَةَ بِالنِّقْمَةِ؛ لَمّا كَفَروا، وإِسنادُ التَّبديل إليهم مجازٌ عقليٌّ؛ وإِنَّما أُضيفَ إِلَيْهِمْ؛ للإيماءِ إلى أَنَّهُ كانَ بِسَبَبٍ مِنْ جِهَتِهِمْ، وَهُوَ تَرْكُهُمُ القيامَ بِما وَجَبَ عَلَيْهِمْ مِنَ العَمَلِ بِتِلكَ الآياتِ البَيِّناتِ[2].

عَظَمَةُ آيَاتِ اللهِ تَعَالَى وَشَنَاعَةُ الْكُفْرِ بِهَا

سِرُّ وضع المظهر موضعَ المُضْمَرِ:

إذا حملنا النّعمةَ على معنى الآيات؛ فيكون قوله سبحانه: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ من وضع المظهر موضع المضمر من غير لفظه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/351.
(2) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 6/366.

السّابق؛ لِلْإِشْعَار بتعظيم الآيات، وتعليل قُبح فِعلهم بكفران تلك النّعمة العظمى؛ وهو تبديلهم إيّاها[1].

وفِي إضافة النّعمة إلى اسمِ اللّه تعالى نُكتتانِ:

إحداهما: أنَّ المرادَ تشريفُها، وهو من تشريفِ المضافِ وتعظيمِهِ.

والأخرى: الإيماءُ إلى العمومِ؛ فإنَّ المفردَ المضافَ يُفيدُ ذلك؛ فهي نعمة عامّة تشمل نِعَمَهُ الظّاهرة والباطنة[2].

بلاغةُ التَّذييل، ودِلالته علَى التَّعْلِيل والعُمُوم:

تَـبْـدِيـلُ نِـعْـمَـةِ اللهِ تَعَالَى كُفْرًا: مـوجـبٌ شـدَّةَ الْعِقَابِ

قول اللّه تعالى: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ تَذْييلٌ لِجُمْلَةِ: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وقد أَفادَ أنَّ المَقْصودَ أَوَّلًا مِنْ هَذا الوَعيد هم بَنو إسْرائيلَ المُتَحَدَّثُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وَأَفادَ أَنَّ بَني إسْرائيلَ قَدْ بَدَّلوا نِعْمَةَ اللَّهِ تَعالى، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلى أَنَّ الآياتِ التي أوتِيَها بَنو إسْرائيلَ هِيَ نِعَمٌ عَلَيْهِمْ، وَإِلّا لَما كانَ لِتَذْييلِ خَبَرِهِمْ بِهذا الحُكْمِ مُناسَبَةٌ، وَهَذا مِمّا يَقْصِدُهُ البُلَغاءُ، فَيُغْني مِثْلُهُ في الكَلامِ عَنْ ذِكْرِ جُمَلٍ كَثيرَةٍ إيجازًا بَديعًا مِنْ إيجازِ الحَذْفِ، وَإيجازِ القَصْرِ مَعًا؛ لِأَنَّهُ يُفيدُ مُفادَ أَنْ يُقالَ: كَمْ آتَيْناهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ هِيَ نِعْمَةٌ عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يُقَدِّروها حَقَّ قَدْرِها، فَبَدَّلوا نِعْمَةَ اللَّهِ بِضِدِّها بَعْدَ ظُهورِها، فاسْتَحَقّوا العِقابَ؛ لِأَنَّ مَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ؛ فاللّهُ مُعاقِبُهُ.

ويُفيدُ هذا التَّذييلُ كذلك العُمومَ حُكمًا جامعًا يَشْمَلُ المَقْصودينَ وَغَيْرَهُمْ مِمَّنْ يُشْبِهُهُمْ، وَلِذا يَكونُ ذِكْرُ مِثْلِ هَذا الكَلامِ الجامِعِ بَعْدَ حُكْمٍ جُزْئِيٍّ تَقَدَّمَهُ في الأَصْلِ، تَعْريضًا يُشْبِهُ التَّصْريحَ، وَنَظيرُهُ أَنْ يُحَدِّثَكَ أَحَدٌ بِحَديثٍ، فَتَقولَ: فَعَلَ اللّهُ بِالكاذِبينَ كَذا وَكَذا، تُريدُ أَنَّهُ قَدْ كَذَبَ فيما حَدَّثَكَ، وَإِلّا لَما كانَ لِذَلِكَ الدُّعاءِ عِنْدَ سَماعِ ذَلِكَ الحَديثِ مَوْقِعٌ[3].

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/328.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/657.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/291.

والتَّذييل: هو جملةُ الشَّرط كلُّها، وإنَّما كان التَّذييل مؤكِّدًا؛ للإشعار بأنَّ مضمونَهُ قاعدةٌ كُلِّيَّةٌ؛ فكلُّ من يُبَدِّلُ نعمةَ اللهِ كفرًا؛ استحقَّ العقابَ الشَّديد، فكيف ببني إسرائيل وقد بدَّلوا نِعَمًا كلّها آيات بيّنات مع ما عندهم مِنَ العِلْمِ بشُؤْمِ هذهِ المخالَفَةِ؟ فالتَّذييل هَاهُنَا جارٍ مجرى المثلِ مؤكِّد للمَعْنَى السَّابق.

نُكتة التَّعبير بـ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ﴾ دونَ (بعد ما جاءته):

مُسَارَعَةُ الْيَهُودِ فِي الْكُفْرِ

جيءَ بِلَفْظِ: ﴿مِنۢ﴾ إِشْعارًا بِابْتِداءِ الغايَةِ، وأَنَّه يعقب: ﴿مَا جَآءَتۡهُ﴾، ﴿يُبَدِّلۡ﴾، وَفي قَوْلِهِ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ﴾ تَأْكيدٌ؛ لِأَنَّ إِمْكانِيَّةَ التَّبْديلِ مِنْهُ مُتَوَقِّفَةٌ عَلى الوصول إليه.

والمجيء: يُقال اعتبارًا بالحصول، ويُقال: (جاء) في الأعيان والمعاني، أَيْ: مِنْ بَعْدِ ما أُسْدِيَتْ إِلَيْهِ ووصلته، وَتَمَكَّنَ مِنْ قبولِها، وَمِنْ بَعْدِ ما عَرَفَها، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ [البقرة: 75][1].

وذِكْرُ ﴿مِنۢ﴾ قبلَ ﴿بَعۡدِ﴾ هنا يفيد أنَّ التَّبديل جاء عَقِيب مجيء النِّعمة مباشرة، وذلك بحكم دِلالة (مِن) على ابتداء الغاية، وهذا يعني: المسارعةَ في الكُفر، والإصرارَ على العِناد، فلم يَمْنَحُوا أنفسهم وقتًا للتَّفكير.

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ﴾:

سَعَةُ رَحْمَةِ الله تعالى بِعِبَادِهِ؛ حيثُ يُبَيِّن لَهُمُ البَيَانَ التَّامَّ

في قول اللهِ سبحانه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ﴾ إثباتُ المجيءِ للآياتِ؛ وذلك على جهةِ الاستعارةِ المكنيَّة، فقد شُبِّهت الآياتُ بالأشياء الحسّيَّة بجامع شدَّةِ الوضوحِ في كلٍّ؛ إذ إنَّ وضوحَ الحسِّيَّاتِ أشدُّ منه في المعنويَّاتِ.

وفي هذا بيانٌ لسعةِ رحمةِ اللهِ تعالى بالعبادِ؛ حيثُ يُبَيِّن لهم البيانَ الكافيَ الذي تقوم به الحُجَّةُ عليهم، وفيه تعريضٌ بأنّ اليهودَ

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 212، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/351.

بدَّلوها بعد ما عقلوها[1]، وجُعِلَ العقابُ مترتِّبًا على التَّبديل بعد هذا التَّمكُّن للدَّلالة على أنَّه تبديل عن بصيرة لا عن جهل أو غلط[2].

وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ﴾ مشتمل على التَّتميم مقرِّر لقوله: ﴿كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖ﴾؛ لتضمُّن الاستفهام في ﴿كَمۡ﴾ معنى التّقريع والتّوبيخ[3].

وإذا كانت الآيات لا يصحّ تبديلها إلّا بعد مجيئها؛ فإنَّ التَّصريح به في قوله سبحانه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ﴾ ورَدَ لكون التّبديلِ قد يقعُ عن غير خبرة بالمبدّل، أو عن جهل به، فيُعذر فاعلُه، وهؤلاء المُتوعَّدُونَ على خلاف ذلك، وفائدةُ هذا التّصريح: مزيد التّقريع والتّشنيع عليهم، والتّأكيد على أنّهم مستحقّون لهذا العذاب[4].

بَلَاغَةُ الْحَذْفِ الْمُقَابِلِيِّ فِي الْآيَةِ:

مِنْ سُمُوِّ النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ التَّفَنُّنُ فِي طَرَائِقِ الْحَذْفِ

إذا حملنا النِّعْمَة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾ على ما هو أعمُّ من الآية، فإنَّ في قوله سبحانه: ﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ حذفًا مقابِليًّا، وهو المسمَّى: الاحتباكَ، فقد تضمَّنت الآية الكريمةُ أربعةَ محذوفاتٍ دلَّ على كلِّ واحدٍ منها مقابِلُهُ، والتَّقدير: كم آتيناهم من آية بيِّنة ونعمة، فبدَّلوها، فاستحقُّوا العقابَ، ومَن يبدِّل نعمةَ اللهِ وآياتِه؛ فإنَّ اللّه شديدُ العقاب.

فلم تُذكر النِّعمة أوَّلًا؛ لدلالة ذِكْرِها ثانيًا في قوله: ﴿وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾، وطُوِيَ ذكر الآيةِ ثانيًا؛ اكتفاءً بذكرِهَا أوَّلًا في قوله تعالى: ﴿كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ﴾، وطُوِيَ ذِكر التَّبديل في صدر الآيةِ؛ لذِكْرِ ما يدلُّ عليه في عَجُزِها ﴿وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾، وسُتِرَ التَّنصيصُ على استحقاق العقابِ في طالعتِهَا؛ لما في خاتِمَتِهَا من الإيماءِ إليه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾.

(1) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/134، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/330.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/292.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/330.
(4) المصدر السّابق.

نُكْتَةُ وَضْعِ المُظْهَرِ مَوْضِعَ المُضْمَرِ:

شِـدَّةُ الْـعِـقَـابِ مُلَائِمَةٌ لِفَظَاعَةِ الذَّنْبِ

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾: الفاء واقعة جزاء للشّرط على تأويل الإخبار، يعني: تبديل النّاس نعمة الله سبب لإخبار الله بكونه شديد العقاب، وهذا لا يُصار إليه إلا عند فَظاعةِ الشّأن[1].

الِاسْمُ الْأَحْسَنُ (اللهِ) دَالٌّ عَلَى مَعَانِي الْجَلَالِ كَمَا يَدُلُّ عَلَى مَعَانِي الْجَمَالِ

وأُظْهِر الاسمُ الأحسن ﴿ٱللَّهَ﴾ مع أنَّ مقتضى الظّاهر أن يُقال: (فإنَّه شديدُ العِقاب)؛ لإدْخالِ الرَّوْعِ في ضَميرِ السّامِعِ، وَتَرْبِيَةِ المَهابَةِ، وَلِتَكونَ هَذِهِ الجُمْلَةُ كالكَلامِ الجامِعِ مُسْتَقِلًّا بِنَفْسِهِ؛ لِأَنَّها بِمَنْزِلَةِ المَثَلِ لِأَمْرٍ قَدْ عَلِمَهُ النّاسُ مِنْ قَبْلُ[2].

شِـدَّةُ الْـعُـقُـوبَةِ بِـحَـسَـبِ شِـدَّةِ الْجُرْمِ

وعُبّر بـ﴿شَدِيدُ﴾؛ ليناسب شدّة الجريمة، وأضاف ﴿شَدِيدُ﴾ إلى ﴿ٱلْعِقَابِ﴾، وجعله عامًّا، فيعاقبه أشدّ عقوبة؛ لأنّه ارتكب أشدَّ جريمة[3]، فهو خَبَرٌ يَتَضَمَّنُ الوَعيدَ بِالعِقابِ عَلى مَنْ بَدَّلَ نِعْمَةَ اللهِ[4].

والعقاب: عذاب يَعْقُب الجُرم[5]، وقد صُدِّرت الجملة بـ﴿فَإِنَّ﴾ لإفادة التّأكيد، والكلام فيه حذف؛ إذ حُذِف السّبَبُ اكتفاءً بذِكْرِ المسبّب، كما تُذكَر المقدّمة، ولا تُذكَر النّتيجة؛ لأنّها مفهومة ضمنًا، والمعنى: من يبدّل ذلك التّبديل؛ فإنّ الله سيعاقبُه عقابًا شديدًا؛ لأنّه سبحانه شديدُ العِقاب، كما أنّه غَفُوٌّ غفورٌ، توّابٌ رحيمٌ[6].

(1) السّابق.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/293.
(3) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/134.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/351.
(5) الواحديّ، الوسيط: 1/314.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/657.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث، سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 3 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-54-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 3 : سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-54-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1789539 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»